

تفسير ابن كثير

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا : { نحن أبناء الله وأحباؤه } فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة ورد عليهم تعالى في ذلك وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال : { تلك أمانيتهم } وقال أبو العالية : أمانيتهم تمنوها على الله بغير حق وكذا قال قتادة والربيع بن أنس ثم قال تعالى { قل } أي يا محمد { هاتوا برهانكم } قال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس : حجتكم وقال قتادة بينتكم على ذلك : { إن كنتم صادقين } أي فيما تدعونه ثم قال تعالى : { بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن } أي من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى : { فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن } الآية وقال أبو العالية والربيع { بلى من أسلم وجهه لله } يقول : من أخلص وقال سعيد بن جبير : { بلى من أسلم } أخلص { وجهه } قال دينه { وهو محسن } أي اتبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما أن يكون صوابا خالصا وحده والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد] رواه مسلم من حديث عائشة عنه E فعلم الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه F فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث إليهم وإلى الناس كافة وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى : { وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا } وقال تعالى : { والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا } وقال تعالى : { وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى نارا حامية * تسقى من عين آنية } وروي عن أمير المؤمنين عمر B أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي وأما إن كان العمل موافقا للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد H فهو أيضا مردود على فاعله وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى : { إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا } وقال تعالى : { فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراؤون * ويمنعون الماعون } ولهذا قال تعالى : { فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا } وقال في هذه الآية الكريمة : { بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن } وقوله : {

فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون { ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور
وآمنهم مما يخافونه من المحذور { فلا خوف عليهم { فيما يستقبلونه { ولا هم يحزنون { على
ما مضى مما يتركونه كما قال سعيد بن جبير { فلا خوف عليهم { يعني في الآخرة { ولا هم
يحزنون { يعني لا يحزنون للموت .

وقوله تعالى : { وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على
شيء وهم يتلون الكتاب { بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندتهم كما قال محمد
بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما
قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أخبار يهود فتنازعوا
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رافع بن حريملة : ما أنتم على شيء وكفر بعبسى
وبالإنجيل وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء وجد نبوة موسى
وكفر بالتوراة فأنزل الله في ذلك من قولهما : { وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت
النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب { قال : إن كلا يتلو في كتابه تصديق من
كفر به أن يكفر اليهود بعبسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى
بالتصديق بعبسى وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى وما جاء من التوراة من عند الله
وكل يكفر بما في يد صاحبه وقال مجاهد في تفسير هذه الآية : قد كانت أوائل اليهود
والنصارى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا { وقالت النصارى ليست اليهود على شيء { قال :
بلى قد كانت أوائل اليهود على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا وعنه رواية أخرى كقول أبي
العالية والربيع بن أنس في تفسير هذه الآية : { وقالت اليهود ليست النصارى على شيء
وقالت النصارى ليست اليهود على شيء { هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهذا القول يقتضي أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى
ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك ولهذا قال تعالى : { وهم
يتلون الكتاب { أي وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل كل منهما قد كانت مشروعة في وقت
ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادا وكفرا ومقابلة للفساد كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد
وقتادة في الرواية الأولى عنه في تفسيرها والله أعلم وقوله : { كذلك قال الذين لا يعلمون
مثل قولهم { بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول وهذا من باب الإيماء
والإشارة وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى { الذين لا يعلمون { فقال الربيع بن أنس وقتادة
{ كذلك قال الذين لا يعلمون { حالا : وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم وقال ابن جريج
: قلت لعطاء من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة
والإنجيل وقال السدي كذلك { قال الذين لا يعلمون { فهم العرب قالوا ليس محمد على شيء
واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعين واحدا من هذه

الأقوال والحمل على الجميع أولى وإِ أعلم وقوله تعالى : { فإِ يحكم بينهم يوم القيامة
فيما كانوا فيه يختلفون } أي أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه
العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج : { إن
الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن إِ يفصل بينهم
يوم القيامة إن إِ على كل شيء شهيد } وكما قال تعالى : { قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح
بيننا بالحق وهو الفتاح العليم }